نشأة الصحافة في العراق وتطورها

ينقسم تاريخ الصحافة العراقية إلى أدوار طبقاً للظروف السياسية التي مر بها العراق، دور الحكم العثماني، ثم الاحتلال البريطاني، ودور الحكم الوطني، ليأتي بعد ذلك دور الحكم الجمهوري، غير أن هذه الأدوار متداخلة، كل دور منها يفضي إلى الآخر، فكثير من الصحفيين الذين عملوا في حقل الصحافة عاشوا في أكثر من عهد واحد، والتطور الذي أصاب الصحافة بعد هذا تطور طبيعي؛ بفعل انفتاح العراق على العالم الخارجي وتطلعه على مصادر ثقافية مختلفة[1].

لقد عانى العراق خلال السيطرة العثمانية كثيراً من التدهور في أوضاعه الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فضلاً عن إصرار العثمانيين على حرمان العراقيين من حكم أنفسهم بأنفسهم. ولم يجرِ في العراق أي إصلاح ملحوظ حتى القرن التاسع عشر، حين عيّن مدحت باشا (1869 ـ 1872)، وهو شخص متنور، والياً على بغداد سنة 1869 ومُنح صلاحيات إدارية واسعة لتنفيذ سلسلة من الإصلاحات في الولايات العراقية كجزء من حركة الإصلاحات التي شهدتها الدولة العثمانية كلها ابتداءً من النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وقد تجلّت إصلاحاته الإدارية والاقتصادية في تطبيق قانوني الأراضي والولايات وهدفهما: العمل على ربط الولايات الثلاث بعضها مع البعض الآخر وتقوية السلطة المركزية عليها. وقد أدى النشاط الإصلاحي للوالي العثماني مدحت باشا الذي عمل والياً للعراق في (1869ـــ1872) ولسوريا في (1879ـــ1880)، دوراً بارزاً في الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية، إذ كان تأسيس المطابع وإصدار الصحف من أولى اهتمامات مدحت باشا، بالإضافة إلى نشر التعليم، والاهتمام بالجوانب الثقافية،

الأمر الذي كان له أثره الايجابي على الحياة الاجتماعية والفكرية في العراق[1].

فشهد العراق ميلاد صحافته على يد الوالي (مدحت باشا) الذي أنشأ أول جريدة في العراق المسماة (زوراء) عام 1869 لا لغرض ثقافي، وإنما لنشر آرائه الإصلاحية و (الفرمانات السلطانية). وإحقاقاً للحق أنها نبهت الشعب إلى أن هناك صحافة وأوامر، وهناك شكاوى فضلاً عن الأخبار الأخرى. وقد استمرت في الصدور مايقرب على تسع وأربعين عاماً إلى أن احتل الجيش البريطاني مدينة بغداد سنة 1917 إذ توارت عن الأنظار وبلغ مجموع اصداراتها (2607) أعداد[2].

لقد جرت في العراق في هذه المرحلة الخطوة الأولى في مجال التعليم والنشاط الصحفي، فقد أسس الآباء الدومنيكان في الموصل عام 1856 أول مطبعة في العراق، وفي السنة نفسها افتتحت مطبعة حجرية في كربلاء[3]. كذلك دأبت المنظمات التبشيرية منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر على افتتاح العديد من المدارس في مناطق مختلفة من العراق، وكان لهذه المدارس منهاج دراسي أوسع من منهاج المدارس التقليدية، وكانت تولي اهتماماً للعلوم التطبيقية التي زادت متطلبات الحياة الاقتصادية من الحاجة إليها. كما إنها كانت تقوم بمبادرات من شأنها تحريك الحياة الثقافية، فقد شهدت مدرسة الدومنيكان في الموصل مثلاً في العقد الأخير من القرن التاسع عشر أول عرض مسرحي في تاريخ العراق الحديث[4]. لقد شهد العراق في عهد مدحت باشا إصدار اول صحيفة باسم (زوراء) في 15 حزيران 1869 التي كانت تظهر فيها بمبادرة منه شخصياً بعض الملاحظات الانتقادية

للوضع السيئ الذي كان يعيشه العراق[1]. وقد كان للزوراء مراسلون في بعض مناطق العراق المهمة، كما كانت (الزوراء) تفتح صدرها لرسائل المواطنين وتعرض مشاكلهم الأمر الذي يدل على انتشارها بين مثقفي ذلك العصر، وإنها في كثير من الأحيان كانت تحدث صدى بين قرائها نتيجة فكرة عابرة أو خبر مؤثر. وقد تناولت (الزوراء) موضوعات هامة وعالجت مشاكل ملحة يبدو إنها كانت تشغل بال الكثيرين ممن يحسون بوطأة الجهل وتفشي الأمية في الولاية[2].

تلت (الزوراء) في الصدور صحيفة (موصل) التي صدرت في ولاية الموصل عام 1885 وهي الجريدة الرسمية الثانية للحكومة العثمانية في العراق، والتي صدر عددها الأول في 1885/6/25 في مدينة الموصل باللغتين العربية والتركية، وجاء في مقدمة الجريدة إنها: (الجريدة الرسمية للولاية تنشر مرة كل أسبوع ويوم الخميس موعد لصدورها) واستمرت بالصدور المنتظم حتى أواخر شهر تشرين الأول عام 1918عند احتلال القوات البريطانية لمدينة الموصل، وتبعتها صحيفة (بصرة) التي صدرت في ولاية البصرة عام 1889 وهي الجريدة الرسمية الثالثة للحكومة العثمانية في العراق، صدرت في مدينة البصرة باللغتين العربية والتركية، وكان صدورها أسبوعياً واستمرت بالصدور المنتظم وتوقفت في 12 تشرين الثاني عام 1914 اثر احتلال القوات البريطانية مدينة البصرة[3]. تلك هي الصحف التي كانت تصدر في مراكز الولايات الثلاث: بغداد والموصل والبصرة واستمرت في الصدور حتى الحرب العالمية الأولى وكان إلى جانبها صدرت مجلتان شهريتان غير رسمية صدرت قبل إعلان الدستور العثماني وهي (إكليل الورد) وكانت مجلة دينية شهرية أصدرها الآباء الدومنيكان في الموصل عام 1902 واستمرت نحو ستة أعوام، أما

الثانية فكانت مجلة (زهير بغداد) أصدرها الآباء الكرمليون في بغداد عام 1905 واستمرت مدة عام واحد فقط [1].

وقد مرت الصحافة العراقية منذ نشوئها عام 1869 حتى بوادر الاستقلال عام 1921 بأدوار ثلاثة يتميز كل دور عن الذي يليه بميزات مختلفة، تجلت فيها خلافات سياسة الهيئة الحاكمة واتجاهاتها، فانعكس هذا الاختلاف على الصحف عامة من حيث أهدافها وسياستها العامة وتقدمها حيناً وتأخرها حيناً آخر. والصحافة مثلت الأدوار المختلفة التي مرت بها ضمن واقعها السياسي والفكري، والدور الذي لعبته بعدها جزءً من التاريخ السياسي للعراق وهذه الأدوار هي:

1. **الدور الأول**: ويبدأ منذ نشوء الصحافة عام 1869 إلى إعلان الدستور عام 1908.
2. **الدور الثاني**: ويبدأ من إعلان الدستور عام 1908 إلى احتلال القوات البريطانية البصرة في كانون الأول من عام 1914.
3. **الدور الثالث**: ويبدأ ببدء الاحتلال البريطاني للعراق عام 1914 حتى بوادر الاستقلال عام 1921.